

سوق تقليب و بيع العبيد بمراكش مع نهاية القرن التاسع عشر⁴¹⁶

أ. مارسى

ترجمة: ذ. محمد الغريب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة

تحدث الطبيب أ. مارسى في مقدمة كتابه " المغرب : رحلة بعثة فرنسية إلى بلاط السلطان"⁴¹⁷ ، الصادر سنة 1885 عن مطبعة Plon، عن الرغبة الجارفة التي تملكت الأمم الأوروبية في التعرف على المغرب والتنافس حوله، حتى غدت هذه الممارسة من قبل أوروبا علامات عن (مسألة مغربية) تلوح في الأفق. ولم يخف مارسى- وهو الطبيب الذي لم يترك شاذة ولا فادة إلا و وصفها - ترحيبه بالفرصة التي منحت له سنة 1882 لزيارة المغرب، فترك ضمن ما تركه من ملاحظات دقيقة وهو في طريقه إلى البلاط السلطاني وصفه لسوق النخاسة بمراكش. ونظرا لانعدام مثل هذه الأوصاف في مصادرنا المغربية، ارتأينا ترجمة هذه الفقرات الخاصة بالعبيد وإن كان الكتاب في حد ذاته كتابا لا يمكن الاستغناء عنه في كتابة تاريخ المغرب الحديث.

ما يزال الرق فاشيا في كل ربوع المغرب، فبيع العبيد هنا (أي في مراكش) يكون ساعة قبل غروب الشمس، ويتم ثلاث مرات في الأسبوع، أيام الأربعاء والخميس والجمعة. وينعقد سوق العبيد هذا في أحد الأماكن بالمدينة قرب القيسارية؛ والمكان عبارة عن ساحة مربعة، واسعة، ومجهزة تحيط بجنباتها مأوى وأنواع من الحجرات الوضيعة أو الأكواخ الصغيرة يتوسطها رواق مسقوف. وفي أيام أخرى وساعات أخرى غير أوقات بيع العبيد، تصلح هذه الساحة لبيع مختلف المنتجات وخاصة الصوف منها، وتتحول المأوى الشاغرة فيها حاليا إلى دكاكين.

وفي اليوم الذي استقر فيه رأينا على زيارة السوق وصلناها باكرا فلم نجد فيها من الناس إلا القليل لأننا كنا لا نعرف سبب تأخر انعقاده، غير أن في وسط تلك المأوى كانت ثمانى نسوة قد جلسن القرفصاء مع بعض الأطفال ينتظرن ساعة بيعهن، وكن حاسرات إلا

⁴¹⁶ - العنوان من وضع المترجم ، و النص المترجم هو جزء من الفصل XIII الذي يبتدئ من الصفحة 206 و ينتهي في الصفحة 217 .

⁴¹⁷ - A. Marcet , *le Maroc , Voyage d'une mission française à la cour du Sultan* , Librairie Plon , Paris , 1885

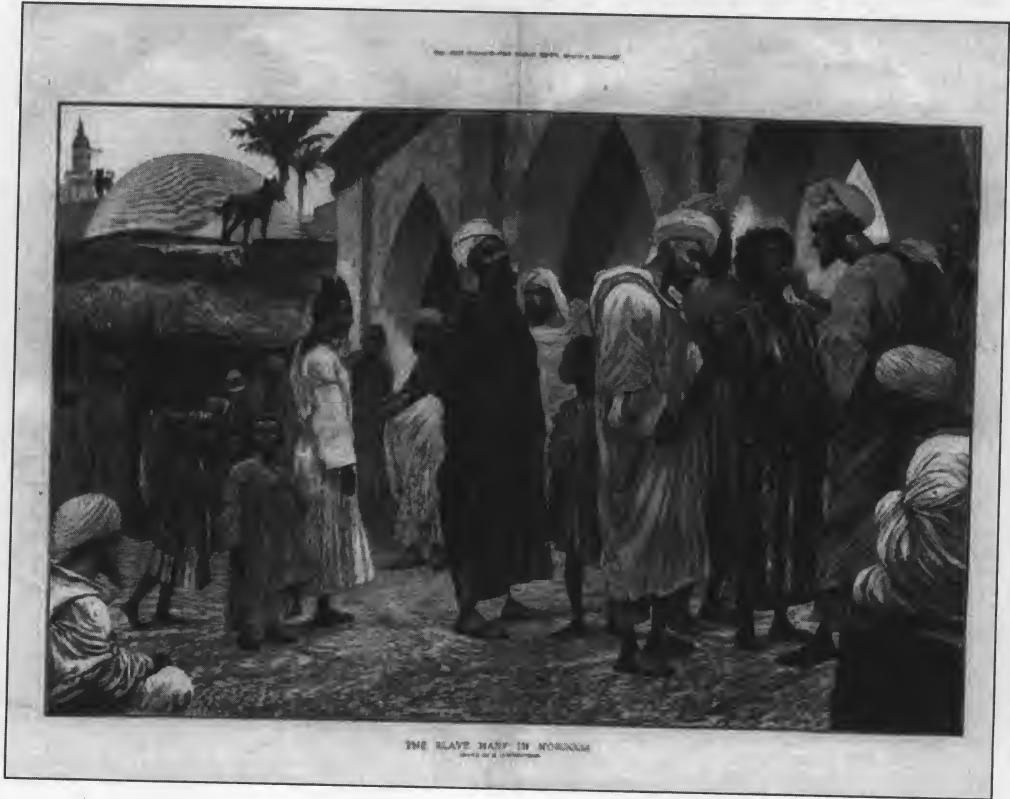
قليلا، يحملقن فينا بفضول إلا واحدة منهم كان ظهرها إلينا ووجهها إلى الحائط. لم تحرك ساكنا عند اقترابنا منها، فوجدنا بالنسبة إليها كعدمه، فلم تبد حراكا ولم تنظر إلينا عندما درنا نتفحصها، حتى كأن لغتنا الغريبة لم تقع في سمعها، ولم نثر فيها أي اهتمام. كانت عبوسة هادئة، ومشدوهة على ما يبدو. فأية أفكار يمكن أن تثيرها؟ كانت رأسها مولاة إلى الأمام، ويدها المغلقتان تسند ذقنها. ورغم ذلك فهي امرأة ما تزال شابة، تخفي طفلا في أطمارها، وأمامها تلعب صببية أخرى وهي طفلة جميلة يتراوح عمرها بين السنتين والثلاث، تتدلى قطعة نقود من إحدى ذؤابات شعرها.

كان لنا من الوقت ما يكفي للقيام بنزهة في الشوارع، وهي مناسبة لنسيان هذا الانطباع الذي يصعب احتماله.

ولما عدنا بعد ساعة، كانت السوق في أوج نشاطها، مفعمة بالحوية والجمهور غفير في كل الجنبات، والدكاكين غاصة بالهاويين أو الفضوليين منهم من اتخذ من جوانب الرواق المركزي مقعدا له، لكن غالبية المجال تركت فارغة لعرض السلع. فالدلالون منهمكون في مباشرة المزاد العلني. فكل منهم يجر أمة أو أمتين أو ثلاث، إحداهن في المقدمة يمسكها من يدها، وتتبعها الأخريان لوحدهما من الخلف. فالدلالون كثيرون يدورون دون توقف حول السوق عارضين سلعهم لجذب انتباه الزبائن المشتريين وينادون معلنين بأعلى أصواتهم على السعر المطلوب أو الثمن المقترح عن كل رأس. صدرت إشارة من أحد العرب وكان مقعى. فأوتي له بالأمة التي عينها، فحضرت بين يديه، فلربما وقفت، و لربما انحنت، ولربما بركت على ركبتيها تبعا لرغبة المشتري. فيقوم المشتري بتقليبها من أخصص قديمها إلى رأسها، فيفحص فمها وأسنانها وعينيها ومنخريها، ويسأل عن سنّها، وعن كل ما يراه ضروريا من دقائق الأمور. وبعد ذلك يزيد في سعرها أو يتركها تمر. وتقوم الأمة بإعادة صدارها (رداء لتغطية صدر المرأة) المزاح؛ ويجرها الدلال ويعود إلى السير ويعود الدلال إلى جرها والسير بها والمناداة ليقف ثانية عند إشارة أخرى ويترك السلعة للتقليب ولحكم المشتري.

هاهي طفلة عمرها اثني عشر عاما، قوم سعرها بـ 150 فرنكا. وجهها لطيف، نهذاها بارزان، يظهر ذلك الرغبة فيها، فهل ما تزال بكر؟ فقد سئلت عن هذا الأمر. وكان الجواب بالتأكيد. فبعدها سيتم البيع وستتولى عريفة التأكد من الأمر. يا ويل الطفلة إن كانت كاذبة، إن الضرب بالعصا هو أقل ما ينتظرها من العقاب.

وهنا فتاة جميلة يتراوح عمرها ما بين 18 و20 سنة، إنها امرأة في عنفوان قوتها وعافيتها خلاسية مكتنزة ذات محيا معبر ونهدين مندفعين وأرداف قوية، عليها لباس من بركال أبيض تتخلله أشرطة حمراء يلتصق بها أسفل الحزام، فيبرز مفاتها ويتناسق بلطف مع سمرة بشرتها، ويبدو أن البائع هو من زينها عنوة ليزيد من قيمة سعرها. فانتهى ثمنها إلى 225 فرنكا، ويمكن أن يتجاوز سعرها 250 فرنكا. إنها أجمل قطعة في السوق، وربما جاد البيع اليوم فيرتفع ثمنها إلى 300 فرنكا.



سوق مراكش للعبيد في القرن التاسع عشر

هنا، صبية عمرها ما بين 6 و7 سنوات، فهل اشتدت قدمها وقويت عضلاتها؟ تبدو هذه المسكينة، قوية البنية لكن سعرها ما يزال على كل حال غير باهظ.

والآن جاء دور المرأة التي كنا شاهدناها في المأوى، تحمل صبيا في يديها وتجر الآخر خلفها، لا تفارقها تعابير الحزن والكآبة، تستجيب طواعية للدلال الذي يجرها للعرض،

هذا كل شيء. تتخلى عن نفسها كتلة هامة، لا حول ولا قدرة لها. فهل ستباع مع أبنائها جملة؟ أم هل تباع الأم من جهة، ثم الطفلة من جهة أخرى؟، صاح الدلال: "يا لله! ميات فرنك للخرجة! شكون يزيد". يعتبر الأطفال عائقا في مثل هذه الحالة.

وما هي أخرى أكبر سنا، وأقل ذبولا، ولا جمال فيها، بيعت بـ 75 فرنكا. كان هذا القدر هو أعلى ما يمكن أن يؤدي فيها.

يوجد ثلاثون من هذه المخلوقات، تعرض تارة وتجر أخرى، ويساوم في سعرها منذ أكثر من ساعة، وتدفع دون رحمة لمن يرغب في تقليبها. في كل هذه السلع لا نعثر على ذكر، فلا يوجد إلا الإناث. إنهن زنجيات متفاوتات السواد إلا من واحدة، بيضاء بشرتها، تلبس من الثياب ما تلبسه نساء البلد، تخفي وجهها تحت ثيابها الصوفية، ولا تميطها عنه إلا عندما تخضع للتقليب. ماذا تفعل هنا؟ كيف ولماذا هي أمة؟ ومن دفعها إلى العبودية؟ هل هي الجريمة أم الفقر؟ لا جواب عندما يتعلق الأمر بهذه الأمور.

يتبعن النخاس جميعا، حافيات الأقدام، أو يسحبن في أرجلهم بلغات خشنة، لا يأبهن لما يحدث حولهن، يطأطنن رؤوسهن، لا يكدن يرمين ببصرهن إلا خفية، لكن الأحلام ترقد في أعماق هذه العقول الإنسانية. ألا يريد بعضهن اختيار من سيكون سيدا لهن؟ يبدو أن هذا الشعور تترجمه أحيانا تعابير وجوههن. ماذا يجري في أعماق قلوبهن؟ أية رغبات؟ أي أمل؟ أية مخاوف؟ أي مصير ينتظرهن؟ لأي هدف هن مرصودات؟ ما مصيرهن بعد لحظات؟ إنه القدر الذي لا تملك أمامه إرادتهن شيئا.



نموذج لسوق شرقي لبيع العبيد

فيما يتعلق بغالبية الإماء، فأصغرهن سنا يتم رصدهن - كما نعرف - لأناس مُنحّلين ذوي شهوات فاسقة. ففي سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة يمتلك كل شاب من أسرة من العلية أُمته، لأن الآباء يسهرون على شرائهن لتسليتهم ويكون هؤلاء الشباب في نفس العمر الذي نضع فيه نحن بين أيدي أبنائنا خيولا ليتعلموا ركوبها. إنها مسألة عادات وتربية، لذلك نادرا ما نجد أمة عذراء وهي في الثانية عشرة من عمرها.

إن هذه التجارة في اللحم البشري، والتي تمارس على مرأى من أوروبا هي شيء فظيع، لقد أصبنا بالإشمزاز من هذا المشهد. إن الانحلال الأخلاقي هو وحده لا شك في ذلك، من يبقى على هذه التجارة المقيتة، وكما لاحظت فإن الإناث وحدهن فقط من يملأن السوق، وبسخرية مرة تُدعى سوقهن بـ "سوق الغزالات". وعموما، فإن العبد، مع ذلك، لا يشعر بالتعاسة عند مالكة، لأنه مفروض عليه - بمقتضى الكتاب - بمداواته ومعاملته بالحسن، بل وبيعه إن هو طلب تغيير مالكة. وأحيانا يتجاوز المالك أوامر القرآن فيقدم الأمة داخل البيت على المرأة الشرعية. وفي الحقيقة، ومن وجهة النظر العملية، فإن العبد الذي لا تقبل شهادته شرعا يبقى تحت رحمة ما يريد له سيده.

ولما كان الرق قد ألغي عندنا، فإن أي عبد يتم شراؤه من قبل أحد الفرنسيين يصبح حرا بموجب ذلك وأن شراء العبيد محظور علينا قانونيا.

ورغم ذلك حاولنا تحرير إحدى هذه المخلوقات لأن العتق هو أول إحساس توقظه فينا رؤية هؤلاء التعساء. لكن، أن يشتري مسيحي عبدا ليس هينا، إذ كان علينا استعمال الحيلة في ذلك. وبعد؟ ما مصير التعيسة المعتقدة؟ فلا مصدر لها للعيش، ولا عمل ممكن أن تقوم به، فإن الحاجة إلى البقاء على الحياة ترغمها إن أجلا أو عاجلا على الدخول في الرق.

إن مصير النساء الشرعيات ليس أحسن حالا من مصير الإماء، ففي بعض ظروفهن، تبقى حياتهم إزاء الرجل رهن الدونية المهيمنة. وتُنفى المرأة في بيت أسرة زوجها، داخل حجرة حيث تقضي وقتها في النوم والأكل والترويح عن النفس، اللهم إلا إذا كانت قد انقطعت للاهتمام بجسمها وهو شيء يحتل مكانة مهمة في حياتها. فالبستها نفيسة وأنيقة جدا، قوامها الحريري الموشى والمحلى بالذهب، ورأسها يلفها منديل فاقعة ألوانه، تغطي ذاتها الحلي والأساور والقلاند والأقراط من الذهب والجواهر والأحجار الكريمة. إنها بالنسبة للزوج من الكماليات وللمتعة لا أقل ولا أكثر. فيسمح لها باستقبال النساء وأهلها وصديقاتها، لكن لا يقبل أي رجل إلى جوارها باستثناء الأب والإخوة والأعمام وأبناءهم. واللقاءات داخل الأسر هي دوما وقطعا بين الرجال أو بين النساء وهو ما يفقدها في نظرنا جزءا من ملاحظتها.



أحد أعمال الإماء